

جيل دولوز وفيليكس جاتاري

2. 1914- ذئبٌ واحدٌ أم ذئابٌ عديدة؟**

ذاك اليوم، ترَجَّل رجل الذئاب⁽¹⁾ عن الأريكة، مُرَهَقاً بوجهٍ خاص. كان يعرف أن لدى فرويد عبقرية أن يحتكَّ بالحقيقة ويعبر بجانبها، ثم يملأ الفراغ بالتداعيات. كان يعرف أن فرويد لا يعلم شيئاً عن الذئاب، ولا عن فتحات الشرج. الشيء الوحيد الذي يفهمه فرويد هو ما الكلب، وما ذيل الكلب. لم يكن هذا كافياً، ولن يكون كافياً. كان رجل الذئاب يعرف أن فرويد سرعان ما سيعلم أنه قد شفى، لكن هذا لا يعني شيئاً، وأنه سيواصل العلاج إلى الأبد تحت إشراف روت [جين ماك برونسفيلك]، ولا كان، ولوكير. وكان يعرف أخيراً أنه في طريقه لاكتساب اسم علم حقيقي يخصه، هو رجل الذئاب، يخصه أكثر من اسمه ذاته، لأنه بلغ أقصى درجات التفرد في الإدراك الفوري لكثرة^(ب) نوعية multiplicité générique: هي الذئاب - لكنه يعرف أن اسم العلم الجديد، الحقيقي هذا سيتم تشويبه، وتمجيته خطأً، وإعادة تدوينه على أنه اسم عائلة.

ومن جانبه، سرعان ما سيكتب فرويد بضع صفحات استثنائية. صفحات عملية تماماً، في مقال عام 1915 عن "اللاوعي"، تتعلق بالفرق بين العُصاب névrose والذهان psychose. يقول فرويد أن الشخص الهستيرى أو الوسواسي قادران على أن يقارنا بشكل كليّ جورباً بمهبل، وندبةً بالإخصاء، إلخ. يجري هذا دون شك في نفس الوقت الذي يدرك فيه الشيء بوصفه كلياً ومفقوداً. أمّا الإمساك [التشبث] saisir شبقياً بالجلد باعتباره كثرةً من المسام، من النقاط الصغيرة، من الندوب الصغيرة أو الثقوب الصغيرة، الإمساك شبقياً بالجورب باعتباره كثرةً من العُز، فهذا ما لن يخطر على بال عُصايي، بينما الذهاني قادرٌ عليه: "نعتقد أن كثرة multiplicité التجايف الصغيرة ستمنع العصايي من استخدامها كبدايل للأعضاء الجنسية الأنثوية"¹. مقارنة جوربٍ بمهبل، هذا ما فعله طوال الوقت، لكن يجب أن يكون المرء مجنوناً ليقارن مجموعاً خالصاً من العُز بحقل من أعضاء المهبل: هذا ما يقوله فرويد. يتمثل في هذا اكتشافٌ إكلينيكي بالغ الأهمية: مما يُحدث اختلافاً تاماً في الأسلوب بين العصاب والذهان. فمثلاً، حين يجهد سلفادور دالي في إعادة إنتاج هذياناته، يمكنه الحديث بإسهاب عن قرن وحيد القرن؛ ورغم ذلك لا يخرج من خطابٍ مرضي عصايي. لكنه حين يشرع في مقارنة القشعريرة، في الجلد، بحقلٍ من قرون وحيد القرن الدقيقة، يحسُّ المرء أن الجو يتغيّر وأنا ندخل في الجنون. هل مازال

الأمر مقارنةً على الإطلاق؟ إنه بالأحرى، كثرةٌ خالصة تُغيّر عناصرها، أو **تصير**. على المستوى المتناهي الصغر، "تصير" البثور الصغيرة قروناً، والقرون، قضبانا صغيرة.

ما كاد فرويد يكتشف الفن الأعظم للاوعي، فن الكثرات الجزيئية ^(ج) moléculaires هذا، حتى وجدناه لا يكف عن العودة إلى الوحدات المولارية ^(ج) molaires، ليعاود العثور على تيماته المألوفة، **ال** أب، **القضيب**، **المجمل**، **ال** إخفاء... إلخ. كلما كان فرويد على وشك اكتشاف ريزومة rhizome ^(د) نجده يعود دوماً إلى الجذور البسيطة. والعملية الاختزالية مثيرةٌ تماماً للاهتمام في مقال عام 1915: يقول أن العصايي يسترشد في مقارناته أو تماهياته بتمثيلات الأشياء، بينما ليس لدى الذهاني سوى تمثيل الكلمات (مثلاً كلمة **ثقب**). "ماهية التعبير اللفظي، وليس تماثل الموضوعات هو ما أُملى اختيار البديل." وهكذا، حين لا توجد وحدةٌ للشيء، توجد على الأقل وحدةٌ وماهيةٌ للكلمة. وسوف يلاحظ المرء أن الأسماء تؤخذ هنا في استخدام **إمتدادي extensif**، أي أنها تعمل بمثابة أسماءٍ شائعة تؤكد توحيد مجموع تُصنّفه ضمنها. إسم العلم لا يمكنه إلا أن يكون حالةً متطرّفة للإسم الشائع، مُتضمّناً في ذاته كثرته المُدجّنة فعلاً ورابطاً لها بكائنٍ أو شيءٍ يتم طرحه على أنه فريد. وما يتعرّض للخطر، على جانب الكلمات وكذلك على جانب الأشياء، هو علاقة اسم العلم بوصفه **كثافة intensité** بالكثرة التي يتصوّرُها على الفور. بالنسبة لفرويد، حين يتشظى الشيء ويفقد هويته، تظل الكلمة موجودةً لتستعيد له هذه الهوية أو لتخترع له واحدةً. يعتمد فرويد على الكلمة لإعادة تأسيس وحدةٍ لم تعد موجودةً في الأشياء. ألا يشهد المرء مولدَ مغامرةٍ لاحقة، مغامرة **الدال** Signifiant، اللحظة الاستبدادية الماكّرة التي تضع نفسها بدلاً عن أسماء الأعلام غير ذات الدلالة، مثلاً تضع بدلاً للكثرات هو الوحدة الكثيية لشيءٍ أُعلن أنه مفقود؟

لسنا بعيدين عن الذئاب. لأن رجل الذئاب، هو أيضاً، في مرحلته الثانية التي قيل أنها ذهانية، من سراقب بصورةٍ دائمة التغيرات أو المسار المتحرك للثقوب الصغيرة أو الندوب الصغيرة على جلد أنفه. لكن في المرحلة الأولى التي يعلن فرويد أنها عُصابية، يحكي رجل الذئاب أنه حلم بستة أو سبعة ذئاب فوق شجرة، ورسم خمسة منها. من يجهل فعلاً أن الذئاب تمضي في قطع؟ لا أحد سوى فرويد. ما يعرفه أي طفل، لا يعرفه فرويد. يتساءل فرويد بتدقيق زائف: كيف يمكن تفسير وجود خمسة، ستة، أو سبعة ذئاب في الحلم؟ لما كان قد قرّر أن هذا عُصابٌ، فقد استخدم العملية الأخرى للاختزال: التداعي الحر على مستوى تمثيل الأشياء، وليس التضمين subsomption اللفظي على مستوى تمثيل الكلمة. والنتيجة واحدة، لأن الأمر يتعلّق دوماً بالرجوع إلى الوحدة، إلى هوية الشخص أو الشيء

الذي يُفترض أنه مفقود. هكذا سيتوجب على الذئب أن تتطهر من كثرتها. وتتم هذه العملية بربط الحلم بحكاية **الذئب والسبع عنزات** (التي يؤكل منها ست فقط). نشهد هنا ابتهاج فرويد الاختزالي، نشهد حرفيا كيف تغادر الكثرة الذئب لتأخذ شكل عنزاتٍ لا شأن لها بالحكاية على الإطلاق. سبعة ذئاب ليسوا سوى عنزات، ستة ذئاب لأن العنزة السابعة (رجل الذئب ذاته) تختبئ داخل الساعة، خمسة ذئاب لأنه ربما في الساعة الخامسة رأى أبويه يمارسان الحب ولأن الرقم الروماني v يرتبط بالانفتاح الشبقي للسيقان الأثنوية، ثلاثة ذئاب لأن الأبوين ربما مارسا الحب ثلاث مرات، ذئبان لأن الأبوين كانا يتضاجعان في وضع *more ferarum* [كلابي]، أو حتى كلبين كان الطفل قد رآهما أولاً يتسافدان، ثم ذئب واحد لأن الذئب، هو الأب، كما كنا نعرف منذ البداية، وأخيرا صقر من الذئاب لأنه قد فقد ذيله، وهو مخصي بقدر ما هو خاص. ممن يسخر فرويد؟ لم تكن لدى الذئاب أية فرصة للإفلات، وإنقاذ قطيعها: فقد تقرّر منذ البداية أن الحيوانات لا يمكن أن تخدم سوى في تمثيل مضاجعة بين الأبوين، أو بالعكس، أن تمثلها مثل تلك المضاجعة. بوضوح يجهل فرويد كل ما له علاقة بالإبهار الذي تمارسه الذئاب، كل ما يعنيه النداء الصامت للذئاب، النداء من أجل الصيرورة - ذئبا. ثمة ذئاب تُراقب، وتحديق في، الطفل الذي يحلم؛ ومن المطفئين أكثر بكثير أن يقول المرء لنفسه أن الحلم قد أنتج عكساً، وأن الطفل هو نفسه من ينظر إلى ذئاب أو إلى أبوين أثناء ممارسة الحب. لا يعرف فرويد الذئب أو الكلب إلا وقد اكتسب الطابع الأوديبي، الأب - الذئب المخصي الخاصي، الكلب في وجاره، بُاح المحلل النفسي.

تستمع فراني Franny إلى برنامج إذاعي عن الذئاب. أقول لها: هل تودّين أن تكوني ذئبا؟ فتجيب بتعالٍ - هذا حق، لا يمكن أن يكون المرء ذئبا، إنه دوماً ثمانية أو عشرة ذئاب، ستة أو سبعة ذئاب. ليس ستة أو سبعة ذئاب في نفس الوقت، هو وحده بمفرده، بل ذئب بين آخرين، مع خمسة أو ستة ذئاب أخرى. ما يهم في الصيرورة - ذئبا، هو وضع المجموع، وفي المقام الأول وضع الذات نفسها في علاقتها بالقطيع، في علاقتها بالكثرة - الذئبية، الطريقة التي تنضم بها إليه أو لا تنضم، المسافة التي تتباعد بها عنه، الطريقة التي تتمسك بها أو لا تتمسك بالكثرة. وكى تخفف خشونة إجابتها، تحكي فراني حلماً: "ثمة صحراء. ومرة أخرى لن يكون ثمة أي معنى للقول بأنني في الصحراء. إنها رؤية بانورامية للصحراء، وهذه الصحراء ليست تراجيدية ولا مهجورة، ليست صحراء إلا بلونها، الأصفر، وضوئها، الحارق دون ظلال. في داخلها زحامٌ يطن، سربٌ من النحل، حشدٌ من لاعبي كرة القدم، أو جماعة من الطوارق. أنا على حافة هذا الزحام، على محيطه؛ لكنني أنتمي إليه، أرتبط به بأحد أطراف جسدي، بيدٍ أو قدمٍ أعلم أن هذا المحيط هو مكاني الوحيد الممكن، يمكن أن أموت لو تركت نفسي أنجرّ إلى مركز الخضم، لكن من

المؤكد أيضا أنني سأموت لو فارقْتُ هذا الزحام. وضعي ليس من السهل الحفاظ عليه، كما أن من الصعب جدا التمسك به، لأن هذه الكائنات لا تكف عن الحركة، وحركاتها غير متوقعة ولا تتبع أي إيقاع. تارة تدور في دوامة، وتارة تتجه صوب الشمال ثم فجأة صوب الشرق، وليس من بين أفراد الزحام من يبقى في نفس المكان بالنسبة للآخرين. ومن هنا فأنا أيضا في حركة دائمة؛ وهذا كله يتطلب قدراً ضخماً من التوتر، لكنه يمنحني شعوراً بسعادةٍ عفيفة تكاد تسبب الدوار. "حلمٌ فُصامي جيد جدا. أن تكون بالكامل في وسط الزحام، وفي الآن نفسه خارجه تماماً، بعيداً جداً: على الحافة، أن تمضي في نزهة على طريقة فيرجينيا وولف ("لن أقول ثانيةً أبداً، أنا هذا، أنا ذاك").

مشكلات مأهولية اللاوعي: كل ما يمرّ خلال مسام الفصامي، خلال عروق المدمن، التنبيل، الطنين، الانتعاش، الكثافات، الأجناس والقبائل. هل هذه إحدى حكايات جان راي Jean Ray، الذي عرف كيف يربط الرعب بظواهر الكثرات المتناهية الصغر micro-multiplicités، هذه الحكاية التي ينتفخ فيها الجلد الأبيض من فرط البثور والدمامل، وتنبثق رؤوس سوداء قرمية من خلال المسام، مُقَطَّبة، ومُقرّفة، بحاجة إلى حلاقتها كل صباح؟ وماذا عن "الهلوسات الليليپوتية"^(هـ) على الأثير. فصامي، إثنان، ثلاثة: "في كل واحدٍ من مسام جلدي، ينبت أطفال" - "أما أنا، فليس في المسام، بل في عروقي تنبت قضبانٌ حديدية صغيرة" - "لا أريد أن يحقنوني، إلا بالكحول بالكافور. وإلا ستنبت لي نهود في كل مسامي." حاول فرويد مقارنة ظواهر الزحام من وجهة نظر اللاوعي، لكنه لم ير جيداً، لم ير أن اللاوعي ذاته كان زحاماً في المقام الأول. كان قصير النظر وثقيل السمع؛ وحسب الحشود شخصاً واحداً. أما الفصاميين فعلى النقيض، عيونهم حادة، وآذانهم. لا يحسبون طنين وتدافع الزحام صوت الأب. ذات مرة حلم يونج بعظام وجاهم. العظمة أو الجمجمة لا توجدان وحدهما أبداً. العظام كثيرة. لكن فرويد يريد أن يعني الحلم موت **شخص ما**. "أشار له يونج، مندهشاً، أن هناك عدة جماجم، وليس واحدة فقط. إلا أن فرويد أردف...²".

كثرة من المسام، من النقاط السوداء، من الندوب أو العُزُر الصغيرة. من النهود، والأطفال، والقضبان. كثرة من النحل، من لاعبي كرة القدم، أو الطوارق. كثرة من الذئاب، من بنات آوى... كل هذه لا يمكن اختزالها، بل نُحِيلُنا إلى وضع معين لتشكّلات اللاوعي. فلنحاول تحديد العناصر التي تتدخل هنا: أولاً شيءٌ يلعب دور جسدٍ مكتمل - جسدٍ دون أعضاء^(و). إنه الصحراء في الحلم السابق. هو الشجرة العارية حيث تربض الذئاب في حلم رجل الذئاب. إنه الجلد كغلاف أو حلقة، الجورب كسطح يمكن قلبه. وربما كان منزلاً، أو جزءاً من منزل، أو الكثير من الأشياء، لا يهم ما هي. لا يمارس أي شخص

الحب، بحبٍ حقاً، إلا ويؤسس بمفرده تماماً، ومع الآخر أو الآخرين، جسداً دون أعضاء. الجسد دون أعضاء ليس جسداً خاوياً ومجرداً من الأعضاء، بل جسداً يتوزع فوقه ما يقوم بدور أعضاء (ذئاب، عيون ذئاب، فكاك ذئاب؟) وفقاً لظواهر الزحام، مُتَّبِعا حركاتٍ براونية، على هيئة كثراتٍ جزئية. الصحراء مأهولة. ومن ثم لا يقفُ الجسدُ دون أعضاء في مقابل الأعضاء، بقدر ما يقفُ في مقابل تنظيم الأعضاء حسبما تشكّل كيئناً عضوياً. الجسد دون أعضاء ليس جسداً ميتاً، بل جسداً حياً، أشد حيويةً، وأشد زخماً بقدر ما ينسف الكيان العضوي وتنظيمه. قملات تتقافز على شاطئ البحر. مستوطنات الجلد. الجسد المكتمل دون أعضاء هو جسد مأهولٌ بالكثرات. ومشكلة اللاوعي، بالتأكيد، لا علاقة لها بالتوليد، بل بالمأهولية، بالعدد الذي يسكنه. إنها مسألة عدد سكان عالمي على الجسد المكتمل للأرض، وليست مسألة توليد عائلي عضوي. "أعشق اختراع أقوام، وقبائل، وأصول عرقية...أعود من قبائلي. أنا حتى اليوم الإبنُ بالتبني لخمس عشرة قبيلة، لا أكثر، ولا أقل. وهي بالتالي قبائلي بالتبني، لأنني أحب كلاً منها أكثر وأفضل مما لو كنتُ قد ولدتُ هناك." يقال لنا: الفصامي، في نهاية المطاف، له أب وأم، أليس كذلك؟ نأسف أن نقول لا، ليس له بهذه الصفة. لديه فقط صحراء وقبائل تسكنها، جسدٌ مكتمل وكثراتٌ تشبث به.

ومن هنا، نصل إلى النقطة الثانية، إلى طبيعة هذه الكثرات وعناصرها. **الريزومة** LE RHIZOME. إحدى الخصائص الجوهرية لحلم الكثرة هي أن كل عنصرٍ لا يكف عن التغيُّر وعن تعديل مسافته بالنسبة للعناصر الأخرى. فوق أنف رجل الذئب، لن تكف العناصر عن التراقص، والنمو والتضاؤل، وتتحدد باعتبارها مساما في الجلد، أو ندوبا صغيرة في المسام، أو حفراً صغيرة في نسيج الندوب. وهذه المسافات المتغيرة ليست كمياتٍ امتدادية يمكن أن تنقسم على بعضها البعض، بل إن كلا منها غير قابلة للانقسام، إنها "غير قابلة للانقسام نسبياً"، بمعنى أنها لا تقبل الانقسام تحت أو أبعد من عتبة معينة، لا تكبر ولا تتضائل **دون أن تُغيّر عناصرها من طبيعتها**. سربٌ من النحل، يأتي هنا كحشدٍ من لاعبي كرة القدم في ألبسة بحرٍ مخططة، أو جمعٍ من الطوارق. أو أيضاً: تتضاعف فصيلة الذئب بسربٍ من النحل ضد زمرة الديول Deulhs^(١)، تحت توجيه موجلي Mowgli^(٢) الذي يركض على الحافة (نعم، فهم كيليبيج نداء الذئب، معناها الليبيدي، أفضل من فرويد؛ وفي حالة رجل الذئب هناك أيضاً حكاية عن الزناير أو الفراشات التي تأتي لتحل محل الذئب، نمُر من الذئب إلى الزناير). لكن ماذا يعني هذا، تلك المسافات التي لا تقبل الانقسام التي تتعدّل دون توقف، والتي لا تنقسم أو لا تتعدّل ما لم تُغيّر عناصرها طبيعتها في كل مرة؟ ألا يعني بالفعل الطابع الكثيف intensif للعناصر ولعلاقاتها في هذا النوع من الكثرة؟ بالضبط مثل سرعة، أو درجة حرارة لا تتكونان من سرعات أو درجات حرارة

أخرى، لكنها تتغلّفان داخل، أو تُغلّفان، سرعات أو درجات حرارة أخرى تُحدّد في كل مرة تغيّراً في الطبيعة. والسبب أن مبدأ قياس هذه الكثرات لا يوجد داخل وسط متجانس، بل في مكان آخر، في القوى التي تعمل فيها، في الظواهر الفيزيائية التي تسكنها، بالضبط في الليبدو الذي يؤسسها من الداخل، والذي لا يؤسسها إلاّ بأن ينقسم إلى تدفّقات متغيّرة ومتميزة كيفياً. وقد أدرك فرويد ذاته كثرة "التيارات" الليبيدية التي توجد معاً داخل رجل الذئب. وهذا ما يجعلنا نندهش أكثر من الطريقة التي يتعامل بها مع كثرات اللاوعي. فبالنسبة له، سيكون ثمة دائماً اختزالٌ إلى الواحد: ستكون الندوب الصغيرة، الثقوب الصغيرة، تقسيماتٍ فرعية للندبة الكبرى أو الثقب الأعظم المستوى إخصاء، ستكون الذئب بدائل **لأب** واحد ووحيدٍ نجده في كل مكان، أو حيثما وضعناه (كما تقول روث ماك برونسفيلك، لنخض إلى النهاية، فالذئب هي **كل** الآباء والأطباء"، لكن رجل الذئب يفكر: وشرجي، أليس ذئباً؟)

ما كان يجب عمله هو العكس، كان يجب فهم هذا كله بكثافة: فالذئب هو القطيع، أي الكثرة المفهومة على أنها كذلك في لحظة معينة، بقدر تقاربها وتباعدها عن الصفر - وكل مسافة هنا لا تقبل التحلل. الصفر هو الجسد دون أعضاء لرجل الذئب. وإذا كان اللاوعي لا يعرف السلب، فذلك لأنه لا يوجد أي شيء سلبي داخل اللاوعي، بل تقاربات وتباعدات غير محددة عن نقطة الصفر، التي لا تُعبّر مطلقاً عن النقص، بل عن إيجابية الجسد المكتمل بوصفه دعامةً وعونا (لأن "أي دفعٍ ضروري لمجرد أن يعني غياب الكثافة"). الذئب تحدّد كثافته، زمرة من الكثافة، عتبة كثافة فوق الجسد دون أعضاء لرجل الذئب. قال طبيب أسنان لرجل الذئب "ستسقط أسنانك، بسبب قضمه فكك، قضمه فكك مفرطة القوة" - وفي نفس الوقت كانت لثته مكسوةً بالبثور والثقوب الصغيرة³. الفك ككثافةٍ عليا، والأسنان ككثافةٍ دنيا، واللثة المبثورة كتقارب من الصفر. الذئب كخوفٍ فوري من كثرةٍ في ذلك الإقليم، ليس مُمَثِّلاً، ولا بديلاً، إنه **أنا أشعر**. أشعر أنني أصير ذئباً، ذئباً بين الذئب، على حافة الذئب، وصرخة العذاب، الوحيدة التي يسمعها فرويد: ساعدني على ألاّ أصير ذئباً (أو على النقيض لئلا أُخفق في هذه الصيرورة). ليست مسألة تمثيل: ليست مسألة اعتقاد المرء أنه ذئب، تمثيل نفسه على أنه ذئب. فالذئب، الذئب، هي كثافاتٌ، سرعات، درجات حرارة، مسافاتٌ متغيرة لا تقبل التحلل. إنه تمثيلٌ، تذوّب. من يمكنه أن يعتقد أن الآلة الشرجية لا علاقة لها بالة الذئب، أو أن الاثنيتين لا ترتبطان إلاّ بواسطة الجهاز الأوديبي، بواسطة الصورة المفرطة الإنسانية **للأب**؟ ففي النهاية يعبر الشرح أيضاً عن كثافة، هي هنا التقارب من الصفر لمسافة لا تتحلل دون أن تغيّر عناصرها من طبيعتها. **حقول من فتحات الشرج، تماماً مثل قطع من الذئب** ألا يتشبث الطفل بواسطة شرجه بالذئب، على المحيط؟ هبوط الفك إلى الشرج. تشبّث بالذئب بفكك وشرجك. الفك ليس فكّ ذئب، ليس الأمر بهذه

البساطة، لكن الفك والذئب يشكّان كثرةً تتحول إلى عينٍ وذئب، إلى شرح وذئب، كدالةٍ لمسافات أخرى، مُتَّبَعَةٌ سرعاتٍ أخرى، مع كثراتٍ أخرى، في حدود عتباتٍ. وخطوط الهروب Lignes de fuite أو نزع التوطن *déterritorialisation*، الصيرورة - ذئباً، الصيرورة - لا إنسانياً للكثافات المنزوعة التوطن، هذه هي الكثرة. الصيرورة - ذئباً، الصيرورة - ثقباً، هذا هو نزع التوطن، وفق خطوط متميزة لكنها متشابكة. الثقب ليس أكثر سلبيةً من الذئب. الإخفاء، والنقص، والإبدال، يالها من حكاية يروها أحقّ مفرط الوعي، لا يفهم شيئاً عن الكثرات باعتبارها تشكلاتٍ للاوعي. ذئبٌ، لكن أيضاً ثقب، هذه جُسيماٌ للاوعي، لا أكثر من جسيمات، نتائج لجسيمات، مسارات لجسيمات، كعناصر لكثراتٍ جزئية. ولا يكفي حتى القول بأن الجسيمات الكثيفة والمتحركة تمر من خلال ثقب، فالثقب جسيم لا يقل عما يمر من خلاله. يقول الفيزيائيون أن الثقوب ليست غياب الجسيمات، بل جسيمات تسير أسرع من الضوء. فتحات شرح طائرة، مهابل سريعة، ليس ثمة إخفاء.

لنعد إذن إلى قصة **الكثرة *multiplicité*** هذه، لأن خلق هذا الاسم مثّل لحظة بالغة الأهمية، بالظبط لتجنّب التعارض المُجَرّد بين الكثير وبين الواحد، لتجنب الديالكتيك، للتوصّل إلى التفكير في الكثير في حالته الخالصة، للكف عن جعله شذرةً رقيّةً من **وحدةٍ** أو **كليةٍ** مفقودتين، أو جعله، على النقيض، العنصر العضوي **لوحدةٍ** أو **كليةٍ** قادمتين - ولتمييز، بالأحرى بين الأنماط المختلفة للكثرة. هكذا نجد لدى عالم الرياضيات والفيزياء ريمان Rieman التمييز بين الكثرات المنفصلة وبين الكثرات المتّصلة (وهذه الأخيرة لا يكمن مبدأ قياسها سوى في القوي التي تعمل داخلها). ثم نجد لدى مينونج Meinong ولدى رسل Russell التمييز بين كثرات الحجم أو قابلية الانقسام، وهي امتدادية، وبين كثرات المسافة، الأقرب إلى أن تكون كثيفة. وكذلك نجد لدى برجسون تمييزاً بين الكثرات العددية أو الممتدة، وبين الكثرات الكيفية أو ذات الديمومة. ونحن نفعل الشيء ذاته تقريباً بالتمييز بين الكثرات الشجرية والكثرات الريزومية. بين الكثرات المتناهية الكبر وتلك المتناهية الصغر. هناك، من جهة، الكثرات الامتدادية، القابلة للانقسام والمولارية *molaires*؛ القابلة للتوحيد، والكلية، والتنظيم؛ الواعية أو ما قبل الواعية - ومن الجهة الأخرى الكثرات الليبيدية اللاواعية، الجزئية، الكثيفة، المكوّنة من جسيماتٍ لا تنقسم دون أن تُغيّر من طبيعتها، ومسافاتٍ لا تتغير دون أن تدخل في كثرةٍ أخرى، لا تكف عن التشكل والتحلل خلال تواصلها، بينما تعبرُ خلال بعضها البعض داخل عتبةٍ معينة، أو فيما وراءها، أو قبلها. وعناصر هذه الكثرات الأخيرة هي جسيمات؛ وعلاقاتها مسافات، وحركاتها شبه براونية؛ وكمياتها كثافات، اختلافات في الكثافة.

ليس هذا سوى أساس منطقي. ويميّز إلياس كانيّتي Elias Canetti بين نمطين من الكثرة يتعارضان أحيانا ويتداخلان أحيانا: كثرة الحشد وكثرة القطيع. بين خصائص الحشد، بالمعنى الذي يقصده كانيّتي، يجب أن نلاحظ الكمية الضخمة، وقابلية الانقسام والمساواة بين الأعضاء، والتركّز، والتفاعل الاجتماعي للمجموع، والاتجاه الواحد للمراتبية، وتنظيم الموطن أو التوطن territorialisation، وبث العلامات. وبين خصائص القطيع، صغر أو محدودية العدد، والتبعثر، والمسافات المتغيرة غير القابلة للتحلل، والتحوّلات الكيفية، والتفاوتات كبقايا أو اجتيازات، واستحالة التعميم الكلي أو المراتبي الثابتين، والتنوع البراوني للاتجاهات، وخطوط نزع التوطن déterritorialisation، وإسقاط الجسيمات⁴. بلا شك، ليس ثمة مساواة أكثر، ولا مراتبية أقل في القطعان مما في الحشود، لكنهما ليسا من نفس النوع. فزعيم القطيع أو الزمرة يلعب ضربة بضربة، ويجب أن يراهن بكل شيء في كل ضربة، بينما يدعم زعيم الجماعة أو الحشد، ويستفيد، من المكاسب السابقة. القطيع، حتى في مواضعه الخاصة، يتأسس على خط هروب أو نزع توطن يُشكّل جزءاً منه، ويُضفي علي هذا الخط قيمةً إيجابيةً عالية، بينما لا تدمج الحشود تلك الخطوط إلّا لتجرّئها، وتسُدّها، وتضفي عليها علامة سلبية. يلاحظ كانيّتي في القطيع أن كل عضو يظل وحيدا حتى وهو مع الآخرين (والمثال هو الذئب - الصيَّادة)؛ كلٌّ منها يتولى شؤنه الخاصة في نفس الوقت الذي يشارك فيه في الزمرة. "في الانتظامات الكوكبية المتغيرة للقطيع، سيجد الفرد نفسه على حافته المرة بعد المرة. سيكون داخله وبعدها على الفور على الحافة، على الحافة وبعدها على الفور داخله. وحين يصنع القطيع دائرةً حول النار، سيكون لدى كل واحد جيران على يمينه وعلى يساره، لكن لا أحد خلفه، ظهره عارٍ ومكشوف للطبيعة الهمجية." نتعرف في هذا على وضع الفصامي، كونه على المحيط، تشبّثه بيدٍ أو بقدم ... وذلك في مقابل وضع ذات الحشد المصابة بالبارانويا، مع كل تماهيات الفرد مع الجماعة، والجماعة مع الزعيم، والزعيم مع الجماعة؛ كونه مُطوّقا جيدا بالحشد، تقاربه من المركز، إلّا يبقى أبدا على الحافة سوى لأداء الواجب. لماذا نفترض (مع كونراد لورنتس Konrad Lorenz مثلا) أن الزمر ونمط ترافقها تمثل حالة أكثر بدائية تطوريّا من مجتمعات الجماعة أو مجتمعات الإقتران؟ لا توجد زُمر بشرية فحسب، بل توجد منها أمثلة مُهذّبة بوجه خاص: فـ "حياة المجتمع الراقى mondanité" تختلف عن "المخالطة الاجتماعية socialité" في أنها أقرب إلى القطيع، ويصنع الشخص الاجتماعي صورة اجتماعية خاصة حسودة وخاطئة عن شخص المجتمع الراقى، لأنه يجهل المواقع والتراتبات في المجتمع الراقى، علاقات القوة، والطموحات والمشروعات البالغة الخصوصية. ولا تتماثل علاقات المجتمع الراقى أبدا مع العلاقات الاجتماعية، ولا تتطابق معها. وحتى "آداب السلوك" (ثمة آداب سلوك في كل الزمر) تنتمي إلى الكثرات المتناهية الصغر وتتميز عن السلوكات أو العادات الاجتماعية.

لكن المسألة ليست إقامة تعارضٍ ثنائي بين نمطين من الكثرات، بين الآلات المولارية وبين الآلات الجزيئية، طبقاً لثنائية لن تكون أفضل من ثنائية الواحد والكثير. فليس ثمة سوى كثراتٍ لكثراتٍ تُشكّل *تجميعية agencement* واحدة، وتعمل داخل نفس *التجميعية*؛ القطعان داخل الحشود، وبالعكس. الأشجار لها خطوط ريزومية، لكن الريزومة لها نقاط تشجر. كيف يمكن أن تنتج الجسيمات المجنونة إلا عن سيكلوترون^(ح) ضخم؟ كيف يمكن لخطوط نزع التوطن أن تقبل التحديد خارج دوائر التوطن؟ أين يمكن، سوى ضمن امتدادات واسعة، وضمن اضطرابات ضخمة في تلك الامتدادات، أن يبدأ في التدفق فجأة جدولٌ ضئيل لكثافةٍ جديدة؟ ما الذي لا يمكننا عمله حتى ينتج صوتٌ جديد؟ الصيرورة - حيوانا، والصيرورة - جزيئاً، والصيرورة - لا بشرياً، تمر كلٌ منها عبر امتدادٍ مولاري، أو تركيزٍ بشري مفرط، أو تُمهّد الطريق له. ولن نستطيع، عند كافكا، أن نفصل تشييد آلة بارانويا بيروقراطية ضخمة عن إقامة آلاتٍ فصامية صغيرة للصيرورة - كلباً، للصيرورة - نحلةً. ولا يمكننا أن نفصل، عند رجل الذئب، بين الصيرورة - ذئباً في حلمه، وبين التنظيم العسكري والديني لوساوسه. الرجل العسكري يصنع الذئب، والرجل العسكري يصنع الكلب. لا توجد كثرتان أو ألتان، بل تجميعية آلتية *machinique* واحدة ووحيدة تُنتج وتُوزّع الكل، أي مجموع المنطوقات التي تناظر "المركّب". ماذا لدي التحليل النفسي ليقوله لنا عن هذا كله؟ أوديب، لا شيء سوى أوديب، لأن التحليل النفسي لا يسمع شيئاً ولا يُنصت إلى أحد. إنه يسحق كل شيء، الحشود والقطعان، الآلات المولارية والجزيئية، الكثرات من كل نوع. لنأخذ الحلم الثاني لرجل الذئب، خلال مرحلته المسماة ذهانية: في شارع، يوجد جدار، له بابٌ مغلق، وإلى اليسار صوان خاوي؛ المريض أمام الصوان، مع امرأةٍ ضخمة ذات ثُدبةٍ صغيرة يبدو أنها تريد أن تلتف حول الجدار؛ وخلف الجدار، ذئب تندفع نحو الباب. لم يكن يمكن حتى لمدام برونسفيك أن تخطيء: فرغم أنها تعرّفت على نفسها في المرأة الضخمة، فقد رأت هذه المرة أن الذئب هم البلاشفة، الحشد الثوري الذي أفرغ الصوان أو صادر ثروة رجل الذئب. **في حالة تتجاوز الاستقرار، تحوّلت الذئب إلى آلة إجتماعية ضخمة** لكن ليس لدي التحليل النفسي شيء ليقوله عن كل هذه النقاط - سوى ما قاله فرويد فعلاً: كل هذا يعيدنا إلى الأب من جديد (لقد كان أحد زعماء الحزب الليبرالي في روسيا، لكن ليس لهذا أية أهمية، إذ يكفي القول بأن الثورة "قد أرضت الشعور بالذنب لدي المريض"). يمكن الظن حقاً بأن الليبيدو، في استثماراته واستثماراته - المضادة، لا علاقة له باضطرابات الحشود، ولا بتحركات القطعان، ولا بالعلامات الجمعية وجسيمات الرغبة.

لا يكفي، إذن، أن ننسب الكثرات المولارية أو آلات الحشد إلى ما قبل - الوعي، ونخصّص للاوعي نوعاً آخر من الآلات أو الكثرات. لأن ما ينتمي إلى اللاوعي على أية حال، هو تجميعية الإثنين، الطريقة التي

تشرط بها الآلات الأولى الثانية، وتُهد بها الثانية الطريق للأولى، أو تراوغها، أو تعود إليها: الليبدو يتخلل كل شيء. وضع كل شيء في الحساب في نفس الوقت - الطريقة التي يكون بها لآلة اجتماعية أو حشد منظم لاوعي جزئي لا يشير فقط إلى ميلها إلى التحلل، بل كذلك إلى المكونات الفعلية لعملها وتنظيمها ذاتها؛ الطريقة التي يكون بها لفرد، مهما كان، مشتبك داخل حشد، لاوعيها الخاص بالقطيع، الذي لا يشبه بالضرورة قطعان الحشد الذي يُشكل هو جزءاً منه؛ الطريقة التي سيحيا بها فرد أو حشد في لاوعيها حشود وقطعان حشد آخر أو فرد آخر. ماذا يعني أن نحب شخصاً ما؟ يعني أن نتشبث به دوماً داخل حشد، أن نستخلصه من جماعة، ولو كانت محدودة، ينتمي إليها، سواء بواسطة أسرته أو بواسطة شيء آخر؛ ثم البحث عن قطعانه الخاصة، عن الكثرات التي يضمها داخله، والتي قد تكون من طبيعة مختلفة تماماً. وضّمها إلى كثراتي، جعلها تخترق كثراتي، واختراق كثراته. أعراس سماوية، كثرات لكثرات. كل حب هو تدريب على نزع الشخصية فوق جسد دون أعضاء في طريقه للتشكل؛ وعند أعلى نقطة من عملية نزع الشخصية هذه يمكن تسمية شخص ما، تلقيه اسم العائلة أو اسم العلم، اكتسابه لأشد قابلية تمييز في الإدراك الفوري للكثرات التي تنتمي إليه وينتمي إليها. قطع من بقع النمش على وجهه، قطع من الصبية يتحدثون بصوت امرأة، فريق من الصبايا يتحدثن بصوت مسيو دو شارلوس، زمرة من الذئاب في حنجرة أحدهم، كثرة من فتحات الشرج في الشرج، الفم، أو العين التي يستغرق فيها المرء. كل واحد منا يمر عبر العديد من الأجساد في كل واحد. يتم استخلاص ألبرتين^(ط) Albertine ببطء من مجموعة من الفتيات لها عددها، وتنظيمها، وشفرتها، وتراتبها؛ وهذه المجموعة أو الحشد المحدود ليست مُشبعة بلاوعي فحسب، بل أن لألبرتين كثراتها الخاصة التي يكتشفها الراوي، فور أن يعزلها، على جسدها وفي أكاذيبها - حتى تعيدها نهاية حبهما إلى دائرة ما لا يقبل التمييز.

في المقام الأول، لا يجب أن نعتقد أنه يكفي أن نميز الحشود والمجموعات الخارجية التي يُشارك فيها أو ينتمي إليها شخص ما، عن الأطقم ensembles الداخلية التي يُغلّفها في داخله. فالتمييز الذي يجب عمله ليس على الإطلاق بين الخارج وبين الداخل، وهما على الدوام نسيبان ومتغيران، وقابلان للعكس، بل بين مختلف أنماط الكثرات التي تتعايش، وتتداخل، وتُغير أماكنها - بين مختلف الآلات، والتروس، والمحركات، والعناصر التي تتدخل في لحظة معينة لتشكل تجميعاً مُنتجةً للمنطوق: أنا أحبك (أو أي شيء آخر). إذ بالنسبة لكافكا، لا تنفصل فيليس Felice عن آلة اجتماعية معينة، ولا عن الآلات الناطقة التي تُمثل هي شركتها؛ كيف يمكنها ألا تنتمي إلى تلك المنظمة في نظر كافكا، المهور بالتجارة والبيروقراطية؟ وفي نفس الوقت، فإن أسنان فيليس، أسنانها الضخمة الكاسرة تجعلها تُسرّع مُتبعاً خطوطاً أخرى، إلى الكثرات الجزئية للصيرورة - كلبا، للصيرورة - ابنة آوي ... لا تنفصل فيليس في

الآن ذاته عن علامة الآلات الاجتماعية الحديثة التي تخصّها وتلك التي تخصّ كافكا (وليست نفس الآلات)، ولا عن الجسيمات، عن الآلات الجزيئية الصغيرة، عن كل الصيرورة الغريبة أو المسار الذي سيقطعه كافكا وسيجعلها تقطعه من خلال جهاز الكتابة المنحرف لديه.

لا يوجد منطوقٌ فردي، بل تجميعاتٌ آتية *machiniques* مُنتجةٌ للمنطوقات. نقول أن التجميعات ليبيديةٌ ولاواعية من الناحية الأساسية. إنها اللاوعي بشخصه. وفي اللحظة الحالية، سنلاحظ في التجميعات عناصر (أو كثرات) من أنواع متعددة: آلات بشرية، اجتماعية، وتقنية، آلات مولارية مُنظمة؛ آلات جزيئية، مع جسيماتها للصيرورة - لابشرا؛ أجهزة أوديبية (نعم، **بالتأكيد هناك منطوقات أوديبية، الكثير منها**)؛ وأجهزة ضد - أوديبية، ذات هيئة ووظائف متغيرة. سنأتي إليها لاحقاً. لم يعد يمكننا حتى الحديث عن آلات مختلفة، بل فقط عن أنماط كثرة تتداخل وتُشكّل في أي لحظة معينة تجميعاً آتيةً واحدةً ووحيدة، هي هيئة الليبدو التي بلا وجه. وكل واحدٍ منا واقعٌ في قبضة تجميعٍ من هذا النوع، نُعيد إنتاج منطوقاتها حين نعتقد أننا نتحدث باسمنا، أو بالأحرى نتحدث باسمنا حين ننتج منطوقاتها. وبالحال من منطوقات غريبة، خطابات مجانين حقاً. ذكرنا كافكا، وكان يمكننا أيضاً أن نقول رجل الذئب: آلة دينية - عسكرية يعزوها فرويد إلى الذهان الحواذي - آلة شرجية للقطع أو للصيرورة - ذنباً، وكذلك زنبورا أو فراشة، يعزوها فرويد إلى الشخصية الهستيرية - جهاز أوديب، يعتبره فرويد المحرّك الوحيد، المحرّك الساكن الذي لا بد أن نعاود العثور عليه في كل مكان - جهاز ضد - أوديب (غشيان المحارم مع الأخت، غشيان المحارم الفصامي، أو حتى الحب مع "أناس من مرتبة أدنى"، أو حتى الشرجية، المثلية الجنسية؟)، كل هذه الأشياء التي لا يرى فيها فرويد سوى بدائل، ونكوصات، ومشتقات أوديبية. في الحقيقة، لا يرى فرويد شيئاً ولا يفهم شيئاً. ليست لديه أية فكرة عما تكونه تجميعاً ليبيدية، بكل الآليات التي تجعلها تعمل، وكل ضروب الحب الكثيرة.

بالتأكيد هناك منطوقاتٌ أوديبية. فمثلاً قصة كافكا، **بنات آوى وعرب**، من السهل قراءتها على هذا النحو: يمكن أن يفعل المرء ذلك دوماً، فهو لا يخاطر بشيء، ويصلح الأمر في كل مرة، حتى لو لم يفهم شيئاً. من الواضح أن العرب يتم الربط بينهم وبين الأب، ويتم الربط بين بنات آوى وبين الأم؛ وبين الاثنين، ثمة حكاية إخصاء كاملة يمثلها المقصص الصديء. لكننا نجد أن العرب حشدٌ منظمٌ، مسلّحٌ، ممتد، منتشرٌ في كل الصحراء؛ وبنات آوى، قطعٌ كثيف لا يكف عن التوغل في الصحراء، متتبعا خطوط هروب أو نزاع توطين ("إنهم مجانين، مجانين حقيقيون")؛ وبين الإثنين، على الحافة، رجل الشمال، رجل بنات آوى. والمقص الضخم، أليس هو العلامة العربية، التي تُرشد أو تُطلق جسيمات بنات آوى،

لثُعْجَلِ سباقها المجنون بانتزاعها من الحشد، وكذلك لتعيدها إلى ذلك الحشد، لترَوِّضها وتسوطها، لتسيطر عليها؟ الجهاز الأوديبي للتغذية، هو الجمل الميت؛ والجهاز الضد - أوديبي للجيفة: قتل الحيوانات من أجل الأكل، أو الأكل من أجل تنظيف الجيف. بنات آوى تصوغ المشكلة جيدا: ليست مشكلة إخصاء، بل مشكلة "نظافة"، اختبار الصحراء - الرغبة *désert- désir*. ماذا سيسود، توطين الحشد أم نزع توطين القطيع، بينما يغمر الليبدو كل الصحراء باعتبارها الجسد دون أعضاء الذي تدور فوقه الدراما؟

لا يوجد منطوقٌ فردي، ولم يوجد أبداً. فكل منطوقٌ هو نتاج تجميعيةٍ آتية، أي نتاج فاعلين جمعيين للنطق (ولنأخذ "فاعلين جمعيين" على أنها لا تعني شعوبا أو مجتمعات، بل كثرات). إسم العلم لا يحدّد فرداً: بل على العكس حين ينفتح الفرد على الكثرات التي تحتاحه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، عند حاصل أقصى ممارسة لنزع الشخصية، فإنه يكتسب اسم العلم الحقيقي الخاص به. اسم العلم هو الإدراك اللحظي لكثرة. اسم العلم هو ذات مصدرٍ *infinitif* خالص مفهومٌ على أنه كذلك في حقل كثافة. هذا ما يقوله بروسست عن الاسم الأول: حين نطقت اسم جيلبرت *Gilberte*، تولّد لدي الانطباع بأنني أمسكُ بها عاريةً برمتها في فمي. ورجل - الذئب، هو اسم علم حقيقي، إسمٌ أولٌ حميم يحيل إلى الصيرورات، وكلمات المصدر، والكثافات لفردٍ منزوع الشخصية ومتكثّر. لكن ماذا يفهم التحليل النفسي عن التكثّر؟ ساعة الصحراء التي يصير فيها الجملُ ألفَ جملٍ هازئة في السماء. ساعة المساء حين ينفتح ألفُ ثقبٍ على سطح الأرض. الإخصاء، الإخصاء، يصبح غرابُ التحليل النفسي الذي لم ير أبداً سوى ثقبٍ، سوى أبٍ، سوى كلبٍ حيث توجد ذئبٌ، لم ير سوى فردٍ مُدجّن حيث توجد كثراتٌ وحشية. إننا لا نلوم التحليل النفسي فحسب على أنه اختار المنطوقات الأوديبيّة وحدها. لأن هذه المنطوقات، إلى حدٍ معين، تشكّل جزءاً من تجميعيةٍ آتية، يمكن لهذه المنطوقات بالنسبة لها أن تفيد كمؤشرات تصحيحية، مثلما في حسابٍ للأخطاء. إننا نلوم التحليل النفسي على أنه استخدم المنطوقات الأوديبيّة لجعل المريض يعتقد أنه سيُنّج منطوقاتٍ شخصية، فردية، وسيُحدث أخيراً باسمه هو. كل شيءٍ مُفخّخٌ منذ البداية: ما كان يمكن أبداً لرجل الذئب أن يتكلم. فليتكلم كيفما شاء عن الذئب، ويعوي كيفما شاء كذئب، ففرويد لا يسمعُ حتي، بل ينظر إلى كلبه ويقول "إنه الأب". وطالما استمر هذا، يقول فرويد أنه العصاب، وحين يتصدّع هذا، فإنه الذهان. سينال رجلٌ - الذئب ميدالية التحليل النفسي نظراً للخدمات التي أدّاها للقضية، وكذلك المأوى والغذاء المُستحقّق للمحاربين القدماء المشوّهين. وما كان باستطاعته الحديث باسمه الخاص إلا إذا تم تحديث التجميعية الآتية التي كانت تُنتج في داخله هذه المنطوقات أو تلك. لكن لا سبيل إلى هذا في التحليل النفسي: ففي ذات اللحظة

التي يجري فيها إقناع الفرد بأنه سيتلفظ بأشد منطوقاته فرديةً، يتم حرمانه من كل شروط النطق. إخراش الناس، منعهم من الكلام، وقبل كل شيء، التظاهر، حين يتكلمون، بأنهم لم يقولوا شيئاً: حياة التحليل النفسي الشهير. يواصل رجل الذئاب العواء: ستة أو سبعة ذئاب! فيجيب فرويد: ماذا؟ تقول نعاج؟ ياله من شيءٍ مثير، سابع النعاج، فيتبقى ذئب واحد، هو إذن والدك ... هذا هو السبب في أن رجل الذئاب يحش بكل هذا الإرهاق: يظل مُمدداً بكل ذئابه في حنجرته، ويكل الثقوب الصغيرة فوق أنفه، ويكل القيم الليبية فوق جسده دون أعضاء. وستأتي الحرب، وتصير الذئاب بلاشفةً، وسيظل رجل الذئاب محتقناً بكل ما عليه أن يقوله. كل ما سيتم إخبارنا به هو أنه قد صار مؤدباً، مهذباً، مُدعناً من جديد، "أميناً وذا ضمير"، أنه شفي باختصار. وينتقم هو لنفسه بالتذكير بأن التحليل النفسي يفتقر إلى رؤية علم - حيوان حقيقة: "لا شيء يمكن أن يكون أثمن قيمةً بالنسبة لشخص شاب من حب الطبيعة وفهم العلوم الطبيعية، وخصوصاً علم الحيوان".⁵

** ** *

1 Freud, *Métopsychoologie*, Gallimard, p. 153.

2 E. A. Bennet, *Ce que Jung a vraiment dit*, Stock, p. 80.

3 Ruth Mack Brunswick, « En supplément à l'Histoire d'une névrose infantile de Freud », *Revue française de Psychanalyse*, 1936, no 4.

4 Elias Canetti, *Masse et puissance*, Gallimard, pp. 27-29, 97 sq.
Certaines de différences indiquées ci-dessus sont marquée par Canetti.

5 Lettre citée par Roland Jaccard, *L'homme aux loups*, Ed. Universitaires, p. 113.

—
هوامش المترجم وتتبع الحروف الأبجدية.

** ترجمة للفصل الثاني من كتاب "ألف مُسطح" لجيل دولوز وفيليكس جاتاري، الصادر عام 1980، باعتباره الجزء الثاني من "الرأسمالية والفصام"، بعد الجزء الأول بعنوان "ضد أوديب" (1972). ويضم

هذا الكتاب 15 فصلا في مجالات متنوعة يحمل كل منها تاريخا، والمقصود منها أن تُقرأ بأي ترتيبٍ كان، ويمكن ربط أي مسطح منها بأي مسطح آخر.

أ حالة رجل الذئب كُتب عنها فرويد في كتاب: **خمس حالات للتحليل النفسي** تحت عنوان: **مقتطف من تاريخ عصاب طفولي: رجل الذئب**. مترجم إلى العربية.

ب **الكثرة**: ربما كانت أهم مفاهيم دولوز وأصعبها فهمًا لوجودها في مجمل أعماله وبسبب الطرق والسيقات الكثيرة المختلفة التي يضعها فيها. تشكل أساس مفاهيم أخرى مهمة مثل: الريزومة، والتجميع، والمفهوم ذاته. في معناها الأكثر أوليةً تعني بنية مركبة لا تُحِيل إلى وحدةٍ سابقة. ليست جزءاً من كلٍ أكبر، ولا يمكن اعتبارها تعبيراً عن مفهوم منفرد أو وحدةٍ متعالية. ولا يمكن أن تنقسم دون أن تغير طبيعتها. إنها دينامية حيوية تخص حياة غير - عضوية. وكل شيء بالنسبة لدولوز عبارة عن كثرة.

يُرجع دولوز الفضل في تطوير مفهوم الكثرة إلى كلٍ من عالم الرياضيات ريمان والفيلسوف الفرنسي برجسون. من ريمان يأخذ فكرة أن أي موقف يتركب من كثراتٍ مختلفة تُشكل نوعاً من الرُقع المتصلة أو المجموع دون أن تصبح كلاً أو كليةً. وعند برجسون، يلاحظ دولوز نوعين من الكثرة: إمتدادية عديدة extensive تُميّز الفضاء، ومتّصلة كثيفة intensive تُميّز الزمن. ولا يمكن تقسيم الكثرة المتصلة الكثيفة دون أن يطرأ تغيير على طبيعتها. مما يعني أنه ليس ثمة كثراتٍ بعينها يمكن ألا تتأثر بالتقاءها مع غيرها من الكثرات.

تتيح هذه المفاهيم التي تبدو مجردة لدولوز تطوير صورةٍ عمليةٍ تماماً للعالم، فضلا عن تمكينه من الإفلات من ثنائية أن تكون الأشياء إما متعالية مجردة أو مادية متعينة. فمفهوم الكثرة لا يُحِيل إلى مجالٍ متعالٍ للعالم يتضمن بذات أو قوانين الوجود. وحيث أننا نحيا بين كثرات فعلية (ونحن أنفسنا كثرات)، فإننا دوماً عناصر وفاعلون داخل العالم. وبهذا المعنى تكون كل من الفلسفة والوجود الإنساني عمليين تماماً.

ج **الجزئية والمولارية**: يضع دولوز الجزئي مقابل المولاري (المتعلق بالمادة في كتلتها الكلية). وهما مفهومان من الفلسفة الذرية والكيمياء والبيولوجيا. يدرس دولوز الأشياء لا كما تبدو للعين المجردة بل باعتبارها كتلاً دينامية من الجزئيات. ووسع التعريف الكيميائي ليشمل الذاتية. وترتبط الجزئية، بالمعنى التحليلي - النفسي، بالاستجابات الفردية (في مقابل المجموع) إزاء الظواهر أو أنماط السلوك. ومن ثم، يكون لأي شيء مُدرِك حسي، عضويًا كان أم غير عضوي، حياةً تخصّه ويتم الإحساس به من خلال التوتر بين كتلته المعنوية وأجزائه الجزئية. ونجد الجزئية في تقييم دولوز للأشياء المجرية، في الإدراكات والحيودات الضئيلة التي تقلقل الإدراك ككل. إنها تعمل، كما يقول، "لتنزية العالم"، وفي نفس الآن، "لإضفاء الروحانية على العالم". وللمنظور المجري بعدٌ سياسي أيضاً. فكل المجتمعات تنشط بفعل الانقسامات المولارية والجزئية. والجزئي إفتراضي، لكنه ليس بذلك أقل واقعية. وتقوم الثورة الدولوزية

في الفلسفة على إضفاء الطابع الجزيئي على كل الذوات والأشياء، التي تتحوّل إلى انبعاثات وبخار للتفردات.

د الريزومة: يصف المصطلح في البيولوجيا نوعا من النبات يمتد من خلال جذره الأفقي تحت - الأرضي الشبيه بالدرنة لينبت نباتا جديدا. تُعدُّ السلالات المرتبة من الأجسام والأفكار التي تتبّع أُسسها الأصلية والفردية أشكالاً من "التفكير الشجري". يستحضر دولوز وجاتاري هذه الاستعارة للبنية الشبيهة بالشجرة والتي ترتّب الإيستمولوجيات وتشكّل أطرا تاريخية ومخططات متجانسة، لوصف كل ما ليس تفكيراً ريزومياً. أما الريزومة، لديها، فهي نسقٌ مفتوح من "الكثرات" دون جذور، ترتبط فيما بينها بطريقة غير شجرية، في مستوى أفقي (مُسّطح أو plateau) لا يفترضُ سلفاً لا مركزاً ولا تعالياً. تُعرّجها بعض الترجمات على نحو غير دقيق بكلمة "جُذُمور".

هـ نسبةً إلى بلاد ليليبوت، في رحلات جليفر.

و جسد دون أعضاء: التعبير مأخوذ من أنتونين آرتو، ظهر أولاً في كتاب دولوز: **منطق المعنى** ثم تم تهذيبه في **ضد أوديب وألف مسطح**، ليشير إلى طبقة تحتية تُعرّف أيضاً بأنها مستوى اتساق (بوصفها جسداً أو حداً لا - متشكلاً، لا - منظماً، لا - مُقسماً ولا - منزوع التقسيم. يوصف بأنه سطح إفتراضي وناغم، لا يقبل الانفصال عن التدفقات التي تجوبه وتتقاطع عليه.

يأخذ دولوز وجاتاري حالة المدموازيل إكس في التحليل النفسي كنموذج لهما. إذ تزعم أنها بلا معدة، ولا مخ، ولا أعضاء داخلية، ولا يتبقى لديها سوى العظام والجلد لمنح بنية لجسدها. ومن خلال هذا المثال يشرح أن الجسد دون أعضاء لا يشير حرفياً إلى جسدٍ خالٍ من الأعضاء. فهو لا ينتج كعدوّ للأعضاء، لكنه مناقضٌ للمبادئ المنظمة التي تبني وتُعرّف، وتتحدث لصالح التجميعية الجماعية للأعضاء، أو الخبرات، أو أحوال الوجود.

يتم اقتراح المفهوم كطريقة للإفلات من أوجه قصور التحليل النفسي التقليدي (الفرويدي أو اللاكاني). يتم صرف الانتباه عن الذاتية، التي يشعر دولوز وجاتاري أن التحليل النفسي يمنحها التميّز تقليدياً. وبدلاً من الجدل بأن الرغبة تقوم على أساس النقص الأوديبى، يزعم دولوز وجاتاري أنها آلةٌ منتجة وفي حالة تدفق دائم. ومقابل الانغلاق والتفسير اللذين يتبناهما التحليل النفسي، فإن نقدهما لمصطلحات: الكيان العضوي، والدلالة، واكتساب الذاتية، التي تنظمن وتربط بيننا، يوحى بإمكان انفتاحات وفضاءات لخلق أنماط جديدة من الخبرة.

ز الديول وموجلي: موجلي هو شخصية خيالية، بطل كتاب **الأدغال** تأليف روديارد كيبلينج.

ح السيكلوترون: مُعجّل نووي لتحطيم نويات الذرات.

ط ألبرت: شخصية في رواية بروسست، البحث عن الزمن المفقود

جيل دولوز وفيليكس جاتاري. ترجمة أحمد حسان

المقالة الثانية من كتاب *Mille Plateaux*

